ما بعد الحداثة.. مجتمع جديد أم خطاب مستجد

سليمان الديراني

الكلمات المفتاحية: سليمان الديراني، الحداثة، ما بعد الحداثة، المثقف، المجتمع.

مع بداية الثمانينات شرعت أوساط من المثقفين العرب في استخدام مصطلحات جديدة لم نعهد لها تاريخًا في الخطاب أو الخطابات العربية. وأخذت هذه المصطلحات، مع الوقت، تحتل حيزًا متعاظم الاتساع في بنية النصوص الفلسفية والسوسيولوجية، بدون أن تكون رغم ذلك واضحة الموقع والمقصد. وأبرز هذه المصطلحات مصطلح "ما بعد الحداثة"، الذي يشبه في كيفية التعامل معه عربيًا، قرينًا له، هو مصطلح "الحداثة". فهذا الأخير، اكتسب من وراء طرق استخدامه، وعلى مر سني هذا القرن – إن لم نقل منذ النهضة وحتى الآن – وضعًا إشكاليًا كان يفضي دائمًا إلى التباس عبارته ومعناه، ويبدو أن الأمر لا يختلف كثيرًا عن كيفية التعامل مع مصطلح "ما بعد الحداثة" برغم أن المسألة لا تزال في بدايتها. فغالبية النصوص التي تتبناه، كما تبنت سابقًا الحداثة، تفترضه معطىً واضح التكوين والقسمات، لا تعوزه مساءلة لأفق مقاصده ولا لسيرورة تشكّله. إن ظاهرة "ما بعد الحداثة" وكما ترد في أعمال غالبية التيارات الفكرية الغربية، لا تزال عصية على أن تكون موحدة المواصفات أو راسية على تعريف بعينه. ومن الصعوبة بمكان القول إن هذه الظاهرة موجودة في الاجتماع دون الاقتصاد، أو في الثقافة دون السياسة أو غيرها. وليس هناك بالتالي، إمكانية لحصر تأثيراتها في ميدان أو مجموعة ميادين، كما ليس بالمقدور الإحاطة بكافة اتجاهاتها يضاف إلى ذلك، الاختلافات الكبيرة في مقاربة هذه الظاهرة، بين مجتمع (غربي) ومجتمع آخر، كل بحسب تقاليده الفكرية والثقافية وبحسب خصوصياته في هذا المجال. وعليه، فإن ظاهرة "ما بعد الحداثة" المتنوعة الأبعاد والمشارب، تأبى حتى الآن كل تحليل بموضعها ضمن حدود معينة، واضحة ونهائية.

ماهية ظاهرة "ما بعد الحداثة" وكيفية تصوّرها

المتابع بدقة للإنتاج السوسيولوجي والفكري في الغرب حاليًا، يمكنه تمييز التيارات التالية:

التيار الأول: الذي يمكننا تسميته "سوسيولوجيا ما بعد الحداثة"، يقوم على محاولة إنشاء صلة رمزية بين ثقافة ما بعد الحداثة وظرف اجتماعي معين. فهو يربط بين ولادة مجتمع ما بعد الصناعة وبين ثقافة ما بعد الحداثة. وأهم من تبنى هذه الصلة هو الأمريكي **دانيال بل**، الذي يعتقد أن البلدان المتطورة قد دخلت مرحلة تاريخية جديدة تحتل فيها المعرفة العلمية مكان إنتاج السلع (من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية). فهذا النمط المجتمعي الجديد يتميز بقدرته

على الإبداع التكنولوجي وعلى إدارة مؤسسات إنتاج المعلومات أكثر من قدرته على تنظيم العمل. كما يستند هذا النمط وبشكل واسع إلى أولوية وأهمية وجود الاختصاص (ولا سيما التقني منه). وإلى وجود التكنولوجيا (ولا سيما تكنولوجيا الخدمات). ويوضح **جان فرانسوا ليوتار** من جهته، هذه العلاقة بين ما بعد الصناعة وما بعد الحداثة بالقول، إن شرط ما بعد الحداثة مرهون بحال ومستوى المعرفة الخاصة بالمجتمع ما بعد الصناعي، أي المجتمع الذي تتخذ فيه القرارات من خلال (تكنولوجيا ثقافية) حقيقية. إن ثقافة ما بعد الحداثة التي تتناسب والأنماط الجديدة من الاستهلاك وسرعة استعمال الدُرَجَة أو الموضة، تشكل الصورة المستقبلية المرتقبة للواقع الجديد والمستندة إلى مرتكزين اثنين: وسائل الاتصال والإعلام، والتقسيم الدقيق للوقت، أو ما نسميه (تذرية) الوقت. وعلى عكس ما تتصف به الحداثة باعتبارها نقيضًا للمجتمع التقليدي، فإن ما بعد الحداثة لا تقوم إلا على إعادة إنتاج وتقوية منطق الاستهلاك، عن طريق توسيع دائرة التعارضات وإبرازها. ويعتبر **د. هارفي** أن الثقافة اليوم هي مصدر السلطة ومكانها المركزي، وهي في الوقت عينه المساحة التي تتبدى فيها الأشكال الجديدة للصراع الطبقي. وهذه الثقافة ليست إلا ثقافة ما بعد الحداثة، وهي تمتلك طواعية عالية للتلاؤم مع الأنماط المتحركة من التراكم الرأسمالي. وتوجد أسماء أخرى عديدة، مثل **سكوت ليش** و**ج. أوري** اللذين يقيمان علاقة بين تفجر (حساسية) ما بعد الحداثة وبين تداعي وانهيار الأشكال القديمة للرأسمالية المنظمة. وبرغم أن هذا البحث لا يتسع لذكر كل الأسماء التي لها علاقة بهذا الموضوع (من وجهة نظر هذا التيار)، تجدر الإشارة إلى الأعمال المستمرة التي يقوم بها **سكوت ليش**، الذي يعرف ظاهرة ما بعد الحداثة باعتبارها ظاهرة ثقافية بالدرجة الأولى، وتمتلك ثلاث مواصفات عامة: أولًا، نتاج سيرورة التمايزات الثقافية. ثانيًا، خلق لنظام جديد من الرموز المجتمعة المتصفة بالرؤيوية أكثر من اتصافها بالملموسية. ثالثًا، هي ظاهرة تعكس تغيرات واضحة وجلية في التصنيف والتراتب الاجتماعيين. نستطيع أن نضيف وجهة نظر أخرى تصب في هذا التيار، انطلاقًا من فكرة مشتركة هي أن ظاهرة ما بعد الحداثة تشكل ثقافة العصر الجديدة. ولكن هذه الوجهة تتمايز، لا بل تختلف كليًا في استنتاجها مع استنتاجات الوجهات الأخرى التي سلف ذكرها. فهي تعتبر أن "ما بعد الحداثة" هي لحظة من لحظات (تصريف المكبوت الثقافي)، كيف؟ إنها تستند في تفسيرها ظاهرة ما بعد الحداثة إلى واقعين: الواقع الأول، أن التقسيم المتعاظم دقة للحقل الثقافي أنتج نوعًا من الانفصال بين خطاب المثقفين وكلامهم وبين ممارسة الفاعلين الاجتماعيين وحركتهم .ونتيجة لهذا الانفصال والتباعد ولدت فئة كبيرة من (المثقفين من أجل المثقفين) على غرار (الفن من أجل الفن). عندها تصبح ظاهرة ما بعد الحداثة، التي تعبر عن التذرية الهائلة للحقل الثقافي مجرد خروج للمكبوت الثقافي عند المثقفين، وهي لهذا تشكل وعيًا متصاعدًا بأن الثقافة أصبحت مجرد لعبة لغوية، أو قل الناحية الجمالية للسلطة، مثلًا. أما الواقع الثاني، فهو الذي يشير إلى نضوب القدرة الإبداعية في الزمن الراهن. فإذا كانت الحداثة (العقلانية) تقوم على مبدأ التقدم والتوسيع الدائم للقدرة الذاتية والإبداعية من أجل استيعاب كل حقيقة

اجتماعية جديدة، وإذا كانت ما بعد الحداثة هي مراوحة وإعادة تكرار للأفكار وإنما بأشكال جديدة، فإن خصوصية المرحلة الحالية (أي مرحلة ما بعد الحداثة) تكمن في القدرة على نقل الرموز المجتمعية التي كانت سائدة في مرحلة الحداثة، والتي جرى نسيان أو كبت أصولها التاريخية، من حيز إلى حيز آخر، ومن زمان إلى زمان آخر. وعليه، تحيل ما بعد الحداثة، قراءة الواقع إلى مجرد نوع من فن التوليف بين عناصر هذا الواقع، توليفًا جديدًا لا أكثر. وباختصار، تقول وجهة النظر هذه إن كل قراءة في الآداب والعلوم الإنسانية مثلًا، تتم انطلاقًا من التذرية والتقسيم الكبير والدقيق لحقول الثقافة وأنواع الفنون، وانطلاقًا مما تتميز به المرحلة الحالية، وهو أزمة الإبداع أو قل أزمة المخيلة. لقد انفصل المثقف عن علاقته العضوية بالمجتمع، وأخذ يعتبر أنه تخطى ضرورة إنتاج كتابات فكرية ناظمة لأحداث ووقائع الواقع ومفسرة لها في الوقت نفسه .وهذا ما يجعل من ظاهرة ما بعد الحداثة حركة للانتلجنسيا التي تسعى إلى الاستقالة من وظائفها الاجتماعية. بمعنى آخر، تُشكِّل ما بعد الحداثة اللحظية التي تجتمع فيها كل هذه الأنواع من الوقائع، لتؤدي إلى نتيجة مفادها أن المثقفين لم يعودوا يشعرون بأن لديهم شيئًا حتى يقال، وأنهم أصبحوا في حل من كل واجب أو وظيفة اجتماعية. ويرددون وبشكل جميل أحيانًا هذه الرسالة (الاستقالة)، بدون أن يكون لها بالضرورة لون واحد أو معنى واحد. والذي ينظر في سوسيولوجية المثقفين، يرى أنهم لا يزالون برغم إعلانهم المتكرر عن انفصالهم عن الواقع واستقالتهم من وظيفتهم فيه، يمتعضون وبقوة في غالب الأحيان من تحولهم إلى مجرد (مثقفين اختصاصيين). كما أنهم يبدون الكثير من الأسى لكونهم تحولوا، في عالم يسوده العقل التقني والأدواتي وتسيطر عليه قوانين السوق، إلى مجرد وجوه بلهاء لا معنى مميز لها، تصطف إلى جانب وجوه رجال الأعمال والمتعهدين وأصحاب المصانع والسياسيين.
التيار الثاني: هو تيار "ما بعد الحداثة السوسيولوجية"، والذي يرتبط أكثر ما يرتبط بكتابات **لوهمان** الذي يحاول في كتاباته مفصلة المرتكزين التاريخيين الخاصين بالسوسيولوجيا: النظام الوظائفي والنظام التطوري. إن نظرية النظم عند **لوهمان** تقوم على افتراض أنه طرأ تحول على مفهوم "النظام". قبل التحول كان يفهم بالنظام علاقة بين الأجزاء وبين الكل الذي يؤلف مجموع هذه الأجزاء، وبعد التحول أصبح النظام يفهم باعتباره بنية علاقات بين النظام ومحيطه. وتستند نظريته هذه إلى مفهومين اثنين: مفهوم التعقيد (بمعنى الترابط الاصطفائي بين عناصر البنية) ومفهوم التمايز (إعادة إنتاج التمايز بين النظام ومحيطه من داخل النظام نفسه). وانطلاقًا من هذه الوظائفية يتطور الفهم التطوري للمجتمعات عند **لوهمان**، فهو يقول إن المجتمعات الغربية عرفت ثلاث أشكال للتمايز: الشكل الأول: هو التمايز الذي يقوم على التنوع (حيث يتميز المجتمع بكون بنيته العامة تشتمل على أنظمة فرعية متوازية).

الشكل الثاني: هو التمايز التراتبي، بحيث يقوم المجتمع على لا مساواة الأنظمة الفرعية فيه، ويشهد من خلال اللامساواة هذه، مبدأ التراتبية الهادف إلى جعل النظام العام للمجتمع متماسكًا. ثم الشكل الأخير: وهذا ما يتم التوجه إليه اليوم، وهو التمايز الوظائفي الذي ينظم التواصل والعلاقات بين الأنظمة الفرعية والتي يتميز كل واحد

منها بوظيفة خاصة. ولكن هذه الوظائف غير مستقلة عن بعضها البعض، بل مترابطة ومتداخلة الصلات، الأمر الذي يمنح الأولوية المطلقة لوظيفة معينة (أو لنظام فرعي معين) على الوظائف الأخرى. بهذا المعنى، فإن الوظائف لا تمتلك إلا أولويات مؤقتة، والنظام الاجتماعي العام الذي يخضع إلى هذه الأولية، لا يستوي تراتبيًا بشكل ثابت، وإنما يستوي على قاعدة أولوية النظام الفرعي (سياسي، إداري، اقتصادي، ديني) بحسب طبيعة التواصل الظرفي والمؤقت بين مجموع الأنظمة الفرعية. بمعنى آخر، التمايز الوظائفي هو الذي يحدد، بنيويًا، أين تقع مركزية المجتمعات المعاصرة والكثيرة التعقيد. إن تمايز بنية نظام (يتضمن مجموعة أنظمة فرعية)، هو نتاج نواة مغلقة للهوية بحسب تعبير **لوهمان،** أو ما يمكن تسميته بالفرنسية (Autoreflexif) ، حيث تنتشر هذه النواة وتكبر بدون أي معوق خارجي لها. إن جوهر النظام الفرعي يكمن في قدرته على التكيف مع محيطه، الذي يزداد بدوره تعقيدًا متواصلًا، أي تفرعًا وبالتالي تمايزًا. بمعنى أوضح، يمتلك كل نظام فرعي منطقًا خاصًا به، مستقلًا عن غيره .استنادًا إلى ما سبق، ورغم التعقيد الذي تتميز به نظرية **لوهمان،** نعتقد أن ما يطرحه هذا المفكر يمثل ربما الفهم الأكثر تماسكًا لظاهرة ما بعد الحداثة. يبقى أن ما تسميه النظرية العامة للنظم التمايز الوظائفي، هو عينه الذي يعرف بالتمايز المعيوش.